لغة العرب

مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية

الجزء ٤ من السنة ٧ عن شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٩

حضارة الاسلام ومفكروه

La Civilisation et les Penseurs de l'Islam.

(لغة العرب) عرفت قراء هذه المجلة حضرة الاديب الفاضل ميشيل سابم كبذ ، اذ جذب اليه قلوب كثيرين من ديارنا فتعلقوا به كل التعلق ، فلقد رأوا فيه رجلا مفكرا قديرا واقفا امس الوقوف على آدابنا وآداب الغربيين ، ووجدوا فيه انه يتبع من الاراء اسلمها عودا وابينها حجة . وهذه المقالة التي نحرنها اليوم على انظارهم تبين ان رايهم لم يكذب ، وهي توضح لنا منزلة تصنيف شائع في ديار الغرب فاقبلوا على مطالعته واسمه « مفكرو الاسلام » وصاحب هذا المقال يشير هنا الى ما فيه من المحاسن وبعض المساوئ ويطالعنا على محتوياته بعبارة جلية فتشكره على هديته هذه الحسناء ونستزيده من اشباهها .

— توطئة —

معنى المستشرقين

هو جد الاوربيين غريب ، وعجيب دأبهم على استخلاص حقائق الامور وغوامض السفور ! وقله هم ، اذ ينصبون على تفسير واستطلاع واستكشاف

الدقائق ! لا كلال يعتورهم ، ولا ملل يتطرق اليهم !.. تراهم اذا بحثوا عن قصد ثبتوا في البحث ثبوت الراسيات الى النهاية حتى الفوز بالمراد ؛ مهما كلفهم من عناء ووصب . لهذا ترى دواما التفوق في جانبهم والابتكار في حقائبهم . فهم يختلفون عنا الشرقيين قلبا وقالبا ، فاننا اذا ما حاولنا اعمالا خطيرة وأنسنا التعب والبرح تخللنا اليأس ، وتطايرت منا تلك الاحلام الذهبية الوهاجة ، تلك الاحلام التي كان يمكن ان تتحقق لو دئبنا في العمل . إلّا اننا قنعنا غير آسفين او لفقناها وابرزناها لضوء الحياة ، صفحة تعسة بائسة ، عليها سماوة العجلة والاضطراب . والاصعب ان تتشل فردا ثار على هذه النقائص الشائنة .

انظر الى الغربيين وقد درهم ! وادر الطرف النزيه في مخلفات القرائح ، ومولدات الاذهان ونتائج الابتعاث ؛ سواء أكانت اختراعات صناعية هائلة ام كتبا زاخرة بالافكار والآراء تجد صورة الوجدان الحي والاعتناء والجلد والدرس العميق البعيد المدى ، تتخلل ادق دقائقها ! وقد اراد المولى الكريم بالشرق خيرا وعونا ، فتخصصت فئة كريمة من هؤلاء الغربيين الفطاحل المدققين ؛ هي فئة المستشرقين الاكارم وتطوعوا كرما ولطفا لدرس آثاره النفيسة والوقوف على مخلفاته الخالدة . فهم لم يجبروا وليس عليهم الزام ؛ انما حب ايقاظ الشعوب الخاملة ، وشعورهم الحي في اظهار الحقائق وبسط المطويات ، دفعاهم الى القيام بهذا المجهود الهائل الذي كان اثره في الشرق — كما تجده عظيما — وعظيما جدا . فاليهم يعزى فضل عظيم في نهضتنا الادبية الحديثة — دون غمط لفضل البعثات الاجنبية الدينية التي يمكننا وضعها ضمن دائرة الاستشراق فلهم بها أيد كريمة !.. اجيالا يعملونها ونحن رقود صموت . ومن المحتم اننا لولاهم لبقينا الى يومنا هذا ، كمهدنا السالف او كما في بدء تنبهنا — اذا اتيحت لنا الفرص — ولاستلزم بلوغنا حالتنا الاخيرة عناء وجهدا واعواما اخرى كثيرة ؛ ومن المحتم ايضا ، فقدنا لكثير من المؤلفات والآثار القديمة . مما هو عز الماضي وفخر اليوم ، وعلى الاخص ما نبشوه من نوادر المخطوطات النوادر واستنقذوه من عبث الزمان وجهالة الانسان ، وقد غدت الآن من غرر الآثار في الآداب العربية وغيرها ودرر تآليفها وحسبنا ان نلقي من نظرنا لمحة للفاير ونستفسر دور

الآثار وخزائن الكتب ولتحكم بعدئذ ! لتحكم بأن الفضل في جمع وترتيب الآثار وطبع المؤلفات والقيام بجميع ذلك خير قيام ! لست احاول البحث واطالة الشروح فكل لبيب اديب يعرفها ويقدر الخدمات الجمة والمشاق العديدة التي قاموا بها . فحيا الله تلك الشهامة الشماء والهمم الفعمى !

لا يخلو امر من فساد ولا حسن من شائبة ، والوجود يحتم الضلال تناول اي موضوع شئت في هذا الكون الواسع المنبسط تحت انظارك فابحث دواخله وخوارجه ، فلا شك انك تصطدم بالمساوئ بين حنايا المحاسن ، وحيث ان هذه الطبيعة المفسدة من سنة الكون ، لا نعدم الوقوع على اقوام مفسدين اذ نقصد استفادة فائدة من كتب المستشرقين الجليلة ، والارتظام العنيف بافكار الطفيليين الخلابة المضللة . هم قوم شيمتهم الانغماس تحت لباس علم المشرقيات ، وما هم منه بشيء ، والردي يردائه الشريف . واظن انه ليس في الشرق من لم يسمع بهذه الاسماء المرددة الوف المرار على صفحات جرائدنا ومجلاتنا الممتازة ايضا : رينان ، غوستاف لوبون ، ادوار مونته ، وامثالهم . واهمها ترديدا على شفاه الشرقيين رينان ولوبون . فاي شرقي مطلع على الحركة الادبية عندنا ولا يعرفهما ؟ اسمان يتلألآن زهوا ولمعانا على كل شفة ولسان؟! لعمري ! لقد ساء فألنا . ونسبنا الفضل الى من لا فضل له ولا فائدة ؛ وغمطنا اصحاب الفضل حقهم ، وسلبناهم عنوة وزورا تعبهم وجهدهم ، وسحقنا بتضليف وعجرفة — كلمة الفظ بلؤم — نتيجة قرائحهم الوقادة المتفتقة ! ولعمري ماذا فعل هؤلاء — وشاكلتهم والحمد لله نزرة — حتى نمجدهم ذا التمجيد ؟ اكفاهم ان يحمدونا ويطرونا — وداؤنا العياء الاطراء — حتى نسجد لهم سجودا ، ونلتقط كلامهم منزلا لامرد له وهم لم يقدموا الينا جديدا مبتكرا ! يالله العجب!.. فلا يغرنا ذهبي الكلام ومنمق الالفاظ . فابحث الحقيقة ولتقدر الرجال . فلقد امرضنا بخس الاقدار ، واحتقار الاعمال الجسام !

يكاد الفرنسيون يحتكرون الاستشراق ، فمنذ قرون عدة وهم المقدمون المشار اليهم بالبنان . هم يبدأون العمل ويفكون الالغاز ويتفهمون الرموز ويحلون الطلاسم ، ثم يأتي بعدهم من ينسج على منوالهم ، ولكننا لا يبنهم ولن يبنهم احد . امامك الامثال شواهد . فهل من ممائل لهم اوقرين ؟

كانوا على الدوام ، ولا يزالون محور الابتكار ومركز الاستشراق التام فمن كتبهم خاصة نال الشرق الهام نهضته الحديثة ، وبمساعدتهم وهب الشرقيون حظ حياة جديدة لامعة ؛ لكنها لا تخلو من بقع سود تذهب برونق كثير من بهجتها وكما سبقنا فقلنا : من عدم تقديرنا للاعمال الخطيرة ، ولا ندري توجيه خطانا المتقلقلة . فنحن نحب التشدق بمفاخرنا . فمن الكوخ الحقير نبتعث قصرا بل قصورا ! كلما أتى علينا احد ولو كتبا وتفاقا لاستجلابنا ، آمنا بكلامه ورفعناه سماء ورددنا صيته كالببغاء كائنا من كان دون فقه ولا بحث ، أيتكلم عن جدارة وحق ام هو ينقل ما قاله هذا وكشفه ذاك واتى به ليسأل شهرة عندنا او ربحا ماديا او ادبيا . ولم يأت بالشيء المبتكر منه ، بل هو ذاته عالة على سواه وان تقول امرأ كان من الاهمية بلا الكثير وليس في حد نفسه يفيد التاريخ ولا يجلو غامضة عالكة .

اذن ، سادتي ، ما الفائدة لنا من امثاله ؟ لا شيء سوى البرهان على ضعف عقليتنا وسوء تقديرنا ! هاءانذا اراك تؤنبني قائلا : انك لا تراني فيما اكتبه إلا عابسا مكشرا ناعيا على الشرق تأخره نادبا حظه التعس في العلوم . . . اجل ! اني لكذلك فقد انقضى عهد كان مدح الشرق فيه واجبا على الشرقيين . لقد آن لنا ان نرفع رؤوسنا المطأطئة ونبصر ما كانت تحجبه حواجب الظلام والجهل ، مضى ذلك العهد البائد التعس ، وحق للشرقيين استفادة فائدة من حوادث الماضي فاجتناء المفيد واجتناب الباطل . فان ترني مشمئزا كارها نادبا فما اراه من مواطن الضعف وانحطاط التقدير تجبرني ان اكونه . . . اذا اردت مثلا فلاضربنه لك والمس به الحقيقة القائلة ظاهرة محسوسا بها تشق القلوب : . . . غوستاف لوبون ! يا له من اسم يفلق أصمخة المسامع في الشرق ! اكبر مستشرق عالم في الغرب وفي العالم كله طرا (؟؟؟) . . . هذا بعض ما يتحدث عنه اصحاب الجرائد والمجلات عندنا . وهل من اسم غربي في الشرق اكثر شهرة واذيع صيتا من اسمه ؟ لا مراء انه الاسم الغربي الوحيد الذي حاز قصب السبق على شفاه قرائها ! ولكنه أيستحق كل هذا الفخر وهذا الاكبار ؟ ان كتابه « مدنية العرب » الذي سبب له رفعة الشأن هذه ليس من الاهمية بمكان . فالذي تطرق

اليه، غدا اليوم عند المستشرقين في حكم المهملات لذيوعه وانتشاره إلا القليل منه النافه. وهو ليس منها بمكان كريم. انك ترى الان ان وضعه وامثاله في مصاف المستشرقين والمستعربين فضلا عن علمهم ثقة وحجة بينهم وسمة عار وخيانة منا تجاه المستشرقين ... وينبغي ان تقرأ في الشرق اسماء: دوسو وماسنيون، ولامنس، وكرا دي فو، وفران، وبروكلمن وغيرهم من اجلاء العلماء في هذا العلم هؤلاء من افادوا الشرق حقيقة وتاريخه فائدة جليلة لاتقدر ولا يحصرها حصر - بجانب ما تقرأه عن رينان ولوبون ولا سيما الثاني فيهما تطفح صفحات النشرات وتغطي الربى وتلتهم مفاخر غيرها. وبذا تجد ايها القارئ العزيز ان قد شططنا عن معقل العدل وواجب العرفان واسأنا استعمال الشكر؛ فحبذا لو وعينا قليلا ورددنا الى كل ذي حق حقه!

« مفكرو الاسلام » لكرا دي فو

Baron Carra de Vaux. Les Penseurs de l'Islam.

اما الان بعد تبسطنا، فقد آن لنا ان نأتي على ذكر كتاب له اليوم مركزه العظيم في عالم الاستشراق، الا وهو كتاب « مفكرو الاسم » للمستشرق العلامة البارون برنار كرا دي فو. هذا الكتاب عظيم بمحتوياته عظيم باستنتاجاته عظيم بجميع مباحثه. ان نذكر عملا خطيرا في عالم المشرقيات يمكننا بكل طمأنينة وثبات. ان نضع في المقدمة هذا التأليف؛ وهو مع انه عمل للشعب الاوروبي عامة، والافرنسي خاصة، وكما يقول المؤلف الكريم، ليعطي فكرة الافرنسي عن الاسلام، وماضيه واعتقاده، وعزه الغابر، وجهده، وبذله، فقد احله المستشرقون اكرم موضع، ولحظ في سائر منتديات العلوم في الغرب، بعين الاعتبار والاجلال. فما احرانا نحن باقتفاء اثرهم، وما احرانا بالاستمتاع واستفادة فائدتهن نراضر هذه الافكار، الفذة التي لاشبيه لها. لغة هذا الكتاب سلسة، سهلة، قريبة المأخذ، دانية التفهم من القراء حتى من ضعيفي الملكة في الفرنسية من دون تعب ذهن ولا وصب عين. اما المؤلف فهو دون معارضة احد ائمة هذا العلم في الغرب اجمعه، وان كان غير معروف لدينا فهو اشهر من ان يذكر لدى علماء المشرقيات،

كلمة عن التأليف

يتركب الكتاب الآنف الذكر ، من خمسة أجزاء ، بقطع ١٢ الضخم ، ولا تقل مجموع صفحاته عن نيف والفين ، وهو يبحث عن كل ما يختص باعمال الاسلام ، واحتك به ، عن شيعه وصوفيته ، حكامه ومؤرخيه : قوانينه وشرائعه فلسفته الدينية والسياسية ، وعلومه الطبيعية حتى عن موسيقاه . اي انه وعى كل فعل له أثر بارز في تاريخه . ومع ان الآداب العربية ، غير داخلة تحت بحثه كما يستدل من عنوانه ، قد خصص فصلا لها ليس بالكبير ولا بالصغير ، ادلى برأيه فيها . فاذا انت تراه دون مبالغة عملا رائعا حقا ، جديرا بالشكر والاحترام فهو بحار علوم اسلامية زاخرة ، او بكلمة اعم : معلمة اسلامية وفية ، ومما يزيده قيمة ، ويكسبه فخرا ، اتصافه بالعلم ، وعدم الجنوح ، فقد اعطى ما لقيصر قيصرا ، وما لله لله ، وقد اتى بتراجم الخلفاء والفلاسفة ، والعلماء ، وسواهم ، ذوي الاثر في تاريخ الاسلام ، ولا تظنه قد اتى عليها دون تعليق كلا ! بل اودعه من بنات افكاره ، وارائه فيهم ، وحكمه عليهم ، مما له الدرجة الاولى في نوعه ، ونحن اذ نذكر شيئا عن هؤلاء لا نأتي بفكرته المبتكرة ذات الاثر ، اذ ما الفائدة من الكتاب لو سلبناه زبدته وروحه بل حياته ، ونشرناها وانما سنتكلم كلاما مجملا ، لنعطي القارئ بعض الفكرة — وحبذا النجاح ! — عن محتوياته ، وعليه مراجعة الكتاب ، لاجتناء فوائده ؛ وحسبنا في هذه الكلمة ، ان ننبهه على قصدنا ، فنزيل ليل الشكوك وبعد عثرات سوء التفاهم . وقد نعلق في بعض المواضع ، بكلمة منه اومنا ، لنتسقط الاسلوب من الجفاوة والاملال : فلا يسأم من ذلك القارئ .

قد يساعدنا على اعطاء فكرة عنه : ان نذكر ما جاء في مقدمته ففيه يبين المؤلف العظيم غايته في نشره وبسط تقاسيمه ومقاطعه وحبذا هي خير مرشد وافصح دليل للقارئ العزيز عن جلالة العمل النفيس :

« ان اهتمام الشعب يزداد تحولا شيئا فشيئا نحو الشرق . وعلائق الدول الاوربية وشعوب الاسلام التي اشتدت مراسها ايضا في ساحات القتال ابان الحرب الاخيرة تزداد توثقا . ففرنسة تملك الان امبراطورية اسلامية

عظيمة . ولذا يجب علينا ان نطلع جيدا على احوال الشعوب التي تمتد عليها ظل سلطتها او نفوذها . ومن الواجب ايضا ان نعلم نفسياتهم وماضيهم واعتقاداتهم واميالهم ومجدهم الغابر .

لقد كان للاستشراق العميق نصيب وافر في السنين الاخيرة — ولا يخفى ان بلادنا احتلت المكان الذي هي جديرة به منذ قرون ثلاثة — وقد عرفت اعمال المستشرقين الادباء الواسعة الرقيعة المختلفة والفائضة اخبارا واعمالا وافكارا . وقد نشر الشرقيون انفسهم كثيرا من تآليفهم القديمة . والكمية المنشورة الان — في الآداب الاسلامية الثلاثة الكبرى : العربية والتركية والفارسية — هائلة دون اشارة الى الملحقات . فالصعوبة الان بذلك تزداد — في وجه المستجد في انتقاء طريقه — في هذه « البحار » كما يقول العرب ولذا فالتآليف الجامعة هي مما لا غنى عنه اليوم والتي تحوي بيانات وارشادات عامة عن المادة المبتغاة .

لا نريد ان نعطي هنا فهرسا بل منتخبات . وليست غايتنا ان نقول كل شيء بل ان نبسط البارز وان نعرف التآليف الرئيسة وبيان بعض الافكار الجليلة وجلاء بعض القتم . اذن ليس ما نقدمه للقارئ اسماء ولا عناوين كتب بل هو شيء هي عن اشخاص وصور وافكار وسمات .

جميع هذه الآداب تزخر بالافكار وكل مؤلفاتها تكاد تفيض بشعور غريزي حق وحسن اخلاق وتصوف . والاميال الذهنية الصادقة قد تسلطت على حياة اشد الغزاة المتوحشة مع نوع من غريزة ممتازة من ادارة حسنة وعقل وحكمة .

« يتألف هذا التأليف من خمسة اجزاء :

« فالاول عن « الملوك والمؤرخين والفلسفة السياسية » .

« والثاني عن « الجغرافية والعلوم » لان جغرافيي العرب عرفوا في اوربة منذ عهد بعيد وعلماء هذه الامة ، علماء الفلك والجبر والكيمياء والطب . كانوا ذوي شهرة في القرون الوسطى وها نحن اولاء في هذا الكتاب نعد للافكار الذكرى ونختصر شيئا مما بذلوه في سبيل العلم .

« والجزء الثالث يبحث عن « التفسير والفقه » . فتاريخ اصول الاسلام غدا — في هذه الاوقات هدف اعمال جليلة من فطاحل المستشرقين كافة من جميع

الجنسيات وهي تكاد تتخذ اليوم بعد ذاتهـا فرعا طريفا بين علم المشرقيات . وسنبحث عنها الشيء العميم .

« وينشر الرابع تحت هذا العنوان « الفلسفة (المدرسية) (١) وعلم الكلام والتصوف » وهو امر قد افضنا عنه قبلا .

« والخامس يكون تحت « الشيع والاباحية العصرية » .

الى هنا ينتهي كلام البارون الفاضل عن عمله العظيم ويقف به وقد اتى في بضعة سطور على اهم دوافعه الى القيام بالاثر الخالد . فهو كما تراه الم بجميع المواضيع وبحث فيه بحثا مختصرا لكنه جدير بالاحترام والاسترشاد . فهيا بنا اذن نستطلع بوضوح وجلاء اكثر ماذا كتب ونستفسر افكاره في بعض اهمها . ولعلنا نتوفق فنتمكن من اعطاء صورة فياضة جليلة غير مضطربة تهدي القارئ وتكشف له عما يستحقه هذا المؤلف من التفات وعناية واجلال .

وصف محتوياته : الجزء الاول

ها هو ذا في الجزء الاول يحدثنا باونا بالمنصور صاحب دار السلام ويتلوه بهارون الرشيد وما بذله في سبيل اعلاء دولته ويحدثنا عن نيته في افتتاح قناة تشق الصحراء بين البحرين الرومي والقلزم « الاحمر » وهي الفكرة نفسها التي خطرت فيما بعد لنابليون في اثناء اكتساحه مصر ، ولغيره حتى قيضت العناية

(١) لا تدل كلمة « المدرسية » على المعنى المطلوب ، في الفلسفة للدعوة بالافرنسية Scolastique وليس في العربية ، كلمة تدل دلالة بارزة على معناها المطلوب ، وقد بسط ذلك كرادي فو في استهلال بحثه ، وابان ان ليس من تادية حقة لها . وهي وان عنت في حد ذاتها هذا المعنى اي (مدرسية) ، في اوروبة تطلق عادة على فلسفة ارسطو والقديس توما الاكويني . اما علماء الاستشراق ، فيستعملونها احيانا ، في غير محلها ، فيطلقونها على فلسفة ابن سينا ، وابن رشد والغزالي ، وسواهم . ومن حيث اننا لم نجد كلمة توافق المطلب آثرنا الاشارة الى هذا المعنى بوضع الكلمة بين هلالين . فما راي العلامة الاب الكرملي في هذه الكلمة ، واي كلمة يراها اوفق منها في الاستعمال ؟ .

(لغة العرب) عرف السلف هؤلاء الفلاسفة من الناطقين بالضاد باسم (الحكماء) كما تشهد عليه كتبهم العديدة ولا سيما تاريخ الحكماء لابن القفطي وعيون الانباء لابن ابي اصيبعة واما ما سماه بعضهم « الفلسفة المدرسية » فهي « الفلسفة المنطقية » عندنا لان مبناها واحكامها قائمة على اصول المنطق الذي اولع به علماء العصور الوسطى وشادوا عليه مباني الدين ،

الالهية لها « فرديناند ولسبس » فافتتح قناة السويس . لكن منعت الرشيد موانع دينية فخفض يده منها كما نقضها منها قبله عمرو بن العاص للسبب عينه .

ومما يشين عهد هذا المولى العظيم قساوته ولاسيما قتله البرامكة الرائع ظولاها لكان عهده الزاهر لاحسن آونة مرت بها دولة العرب ... ونصوب نظرنا فاذا المأمون والامين ، حب الرشيد وزبيدة يعترضاننا واذا قصتهما الفاجعة تتحنى بين طيات الصفحات واذا تحكم المأمون يتلوها زاهيا . ففي ايامه ازدهرت الفلسفة اليونانية عند العرب وافتتحت المعالم (المدارس) لتعليمها وازهرت سائر العلوم والفنون الراقية وكان موت هذا « الامير العظيم الحكيم » ضربة صماء على العرب . ثم ينتقل بنا كرا دي فو الى صلاح الدين واعماله الكبيرة وانتصاره العظيم في موقعة طبرية الشهيرة ، بمساعدة الاقدار وعن صداقته مع ريكاردس قلب الاسد وعن حكمته وكرمه حتى ان اعداءه كانوا يميلون اليه « وكادت تكون بينه وبين زعماء الافرنج شبه صداقة فلقد كان عظيما في حكمه عظيما في اعماله عظيما في حروبه .

نمر في هذا الجزء بتاريخ كثير من كبار الحكام في الاسلام أمثال هولاكو الذي ثار على غرب بلاده او كما نعرفه اليوم على « الشرق الادنى » وترك بغداد قاعا صفصفا ينعق فيها البوم وتتصايح على جثث اولاديها الوحوش وتحوم حولها النسور (١). فمحمد الثاني فاتح القسطنطينية ومؤسس دولة الاتراك فيها فسليمان وتيمورلنك وتتدرج بعد ذلك الى غيرهم فيقع اختيارنا على « اكبر » احد عظماء حكام المغول في الهند الذي كان عالما فيلسوفا . وكانت بلاده تضم من الاديان

(١) نحن لا نعتقد بهذه الخرافة التي وضعها اعداء هولاكو من المؤرخين (راجع ما كتبناه في حاشية ص ٢٤٧ من السنة ٦ وص ٦ وما يليها من السنة المذكورة وشرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٤ : ٤٧٥) وقد قال الكونت دي غوبينو في كتابه « الاديان والفلسفات في قلب آسية » ما هذا نقله ص ٦٩ : ان المغول صرفوا الاموال الطائلة ومنحوا للنسخ ويجلوا كل التبجيل الشعراء والكتبة واما اصحاب المهن والصنائع والفنون فانهم عنوا بهم عناية خاصة يشهد على قولنا هذا المباني التي شيدها المغول فانها كانت ذات عظمة لم يسمع بمثلها سابقا . انظر [جامع الخليفة الذي اعادوا بناءه في بغداد] وجامع تبريز وسلطانية و ورامين تقل لك من كان اولئك الناس مع انها الان خربة . انتهى كلام الكونت .

(لغة العرب)

جميعها واشتاتها . فلمام هذا السيل الجارف من المعتقدات خطر له ان يوحد دينا يتألف من جميعها . فأتى بكثير من رجال الاديان حتى من اليسوعيين للتجادل امامه وسمح لكل بانشاء معبده الخاص به وكان هذا المكان يدعى «عبادت خانه» اي بيت العبادة . فكانوا يخطبون فيه بكل حرية . وبلغت به فلسفته ان انشأ على رغم تحريم الاسلام لصورة الحيوان معبدا ضم فيه الى صور المسيح صور بوذا . ولقد كانت له حقا من فلسفته هذه — بل عدم ايمانه اذ امكن (كما وصفه احد مؤرخيه) تجاوزا عظيما عن كل ما يقتضيه الشرع الاسلامي . أجل انها لثورة فلسفية ساكنة هادئة تحميها السلطة وتوطدها السلطة فالخوف . ولا تزال قاعة تلك المحاضرات المتعددة الاغراض المتباينة المذاهب والاديان تقوم في عاصمة مقتح بور سيكري » . . . وفي حكمه ارتقى الفن في الهند ارتقاء عظيما .

نقلة « اكبر » الشهيرة هي من عبقريته . فهو لم يكن فيلسوفا فحسب بل كان حاكما عالما يحب الرقي والفن في كل شيء حتى قيل انه حسن الآلات الحربية واخترع طراز عجلات (عربات) وهلم جرا .

واذا انتهينا من امر الملوك والحكام نرانا امام المؤرخين واذا البارون الكريم يحدثنا عن سبب جهلهم في اوربة . لان العرب لم تعرف قط معنى كلمة « تاريخ » كما نعرفها اليوم وكما كانت تفهم في اوربة منذ عهود . فنحن اذا قرأنا تواريخ بلوطرخس المؤرخ اليوناني الشهير وقابلناها بما لدينا من كتب العرب المسماة « تواريخ » اطلعنا على الفرق العظيم الشاسع فتواريخ العرب عبارة عن قصص واخبار مضطربة غير منسقة تختلف طولا وقصرا دون فكر اذلا تمحص ما يجمع تحت يدها بل تلقيها على القراء جزافا وقد نعت دي فو المؤرخ العربي واصاب بكونه « جامع اخبار وانباء » (ومعلومات) ولم يكن قصده الاهتداء للحقيقة بل جمع الاحاديث وضمها بعضها الى بعض وعلى القارئ ان يحكم وعليه ايضا ان ينقد . فالمؤرخ مخبر انباء (معلومات) لاغير . . . ويزيد التاريخ العربي تعقدا مايعتور لغة بعضهم من ضحالة الاسلوب وقصر المقاطع مما يلبسه صبغة مملة . وقد تكون في بعض الاحيان او في احد الفصول ما ينفر القارئ نفورا كريها .

ها نحن اولاء نتعرف بالطبري وابن مسكويه (ل . ع . صواب مسكويه (

كتابخانه تخصصی

والفخري وعن أشهر تآليفهم المفيدة ثم تتوصل الى مؤسس الهلال المرحوم جرجي زيدان فتقف هنيهة امامه تقلب النظر . فدي فو ينظر اليه كمؤرخ شرقي يتمشى على الروح الاوربي العصري فيبحث عن طريقة زيدان في درس العصور الاسلامية على الاجمال ثم اختصاصه بعهد العباسيين . فبحثه عن سياستهم وادارتهم واحوالهم في رواياته المعروفة في الشرق . كالعباسة اخت الرشيد والامين والمأمون وعروس فرغانة وغيرها . فبحث زيدان عن المناقسة الهائلة التي كانت تجري بين الفرس (العجم) والعرب وما كانت تتستر به في كثير الاحيان فتختفي الاغراض المزجرة وتظهر المقاصد النافعة ! ونحن نرى في عروس فرغانة بعض تلك المثل ظاهرة واضحة وذلك حقيقة كما ينعته دي فو انه درس تاريخ العباسيين « بروح فلسفي يدعمه نظر ثاقب » .

وتنتقل فاذا ابن الاثير و كامله الذي خصص للصليبية مكانا معتبرا فيه . . . من اغرب صفحات التاريخ العربي ات احد امرآء السوريين اسامة بن منقذ الذي كان في شيزر كتب ما نسميه اليوم (بالمذكرات) فهذه غير معروفة في الشرق ولم نعرفها نحن إلا منذ عهد ليس ببعيد بينما كانت منتشرة في الغرب منذ عصور بعيدة فأسامة شذ عن جميع المؤرخين في العربية بانتقائه هذه الطريقة الفريدة وسار عليها ونشر تاريخ حياته واعمال والده الامير وتدخلت بين تضاعيفها اخبار الحروب الصليبية فاذا تعد مرجعا مفيدا لابأس به في نواحي ذلك التاريخ . ويمتاز اسامة ايضا بشخصية غريبة جدا . . . ونمر سراعا على المؤرخين العرب والفرس والمغول والترك امثال المقريزي والفردوسي وناصر خسرو وابوالفزي وسعد الدين وجاويد بك وسواهم . ونحط رحالنا اوانا لننظر الى « الاجتماعي العربي العظيم ابن خلدون » من لا يخفى على احد شهرة مقدمته التي طارت في الخافقين فهنا بحث كرادي فو من جهة فلسفته التاريخية . فابن خلدون بحثنا عن نفسيات الشعوب واسباب الفروق التي بينها من قيام الدول وسقوطها والمدنيات وتقلب الاحكام وهلم جرا . لذا اضطر دي فو التوسع في بحثه ودرسه واقاض كثيرا مع ازدحام كثرة مواد الكتاب وختم كلامه بوضعه في مصاف كتاب اوربة العصريين كما ان غوتيه عده احد الثلاثة العظام الذين انجبهم شمال

افريقية اي وضعه الى جانب « حنيبعل والقديس اغسطينس (١) » وقد تعمق هذا الكاتب ايضا في درسه وخصص له مكانا رحبا في كتابه الفريد « عصور المغرب المظلمة » ... اجل ! اذن فالبارون الفاضل لم يهضمه حقه بل وفاه اياه كاملا ولا نبالغ نحن اذا قلنا عنه انه احد الادمغة العظيمة التي انجبتها العرب في ميدان الانسانية المفكرة الشاسع .

ونعبر الى الجاحظ ونظام الملك وما ثالهما الفطاحل واذا نحن نقف فجأة امام مطلع فصل « الامثال والقصص » فنراه يتحدث لنا عن الآداب العربية ... ماهذا ؟ ليس هذا من موضع الكتاب كما يومىء اسمه ! نعم ! فالبارون الفاضل يحدثنا ان ليس هذا من اختصاصه ولكنه يجب أن يدلي ببعض الرأي وحسنا فعل: فبذا يعطي القارئ على الاقل فكرة عن الآداب العربية مصغرة تصغيرا حسنا . ويقف من ناحية الشعر موقف الكثير من المستشرقين فهم جميعا يرون في الشعر الفارسي وفي التركي المعاصر تفوقا عليه في الرخامة والتصوير والابداع والرقة ولعلهم مصيبون ؟ ويتحدث عن بعض مطاعل الشعراء الجاهليين والاسلاميين كعنترة والنابغة والاخطل وجرير والمتنبي ويقتطف قطعة من ديوان الغيباني ـ المنقول الى الفرنسية بعناية ديرانبور ـ ويمتدح الامثال في العربية ويقول انها مما تكسب العرب فخرا حميدا . ويصف كتب جوامع الامثال كالزمخشري والميداني ومن هوى هواهم . وتنتهي فاذا هو يتحدث الينا عن لقمان الحكيم وكتاب كليلة ودمنة . ولا تتعجب وتذهل ان وجدناه خصص حصة من بحثه الطريف بحكايات الف ليلة وليلة : فلها في أوربة حرمة وبين المستشرقين الكرام مكان معتبر ـ حتى ان احد الاميركيين خصص لها اليوم نور حياته الوقوف على منشأها واصلها وكيفية دخولها في هذه المجموعة الفذة ـ وعليه نراه يتحدث عنها ويبحث في بعض قصصها المشهورة . وهكذا ينتهي الجزء الاول .

الجزء الثاني

والآن نتناول الجزء الثاني فهذا يصوب بحثه نحو مواضيع كان للعرب في بعضها جزء من الفخر جميل ولهم بها يد كريمة فيتلخص البحث فيه عن ارباب الجغرافية وعلماء الرياضيات والطبيعيات . في هذه يختلف تأثير مواهبهم حسبما

(1) E. F. Gautier:Les siècles obscur sdu Magrbe. p. 53. (Payot)

رافقهم الحظ بها . يستهل هذا الجزء بالحفريات واذا باليعقوبي يواجهنا وهو احد أوائل العلماء العرب في هذا العلم شهده الشرق في القرن الثالث للهجرة مع قرينه ابن خرداذبه الذي سبقه هنيهة انما يمتاز عنه « برزانته وافلاته من الخرافات فتلك شأن الكثير من الجغرافيين الشرقيين » ثم يتلو هذا بعلم هذا العلم الشريف الادريسي صاحب « نزهة المشتاق » وهذه « في مجملها تضاهي مجموعة استرابون » وانما يؤخذ عليه ما يشوه خرائطه العديدة من الاغلاط الجمة ... وتقلب الصفحات فاذا ابو الفداء صاحب « تقويم البلدان » فياقوت الرحالة المعروف وكتابه العظيم الخالد احد الاعمال التي تزيد الاسلام شرفا عظيما . ثم يتحدث كراتشكوفسكي عن الجغرافية العامة في البحث عن الخسوف والكسوف ونجم القطب وخطوط الطول والعرض وفصول السنة وخلافها مما يدخل تحت حكم هذا العلم الضخم مع بعض عرض لافكار فطاحل الاغريق القدماء كفيثاغورس وبطليموس وامثالهما . ويتوسع في هذا البحث العميم فيتخذ الفصل الثاني من كتابه في الكلام عن سواحل البحار والابحاريات (علم البحار). ويذكر لنا بعد استهلال مطول ابن ماجد النجدي الذي كان ربان سفينة فاسكودي غاما الكاشف البرتغالي العظيم وهو الذي قادهم الى جهات الهند ودلهم على سواء الطريق ومآمنه . ثم نعكف فاذا الفصل الثالث يلاحق اخويه ويتصل بالعلم المذكور وفيه نمر بفطاحل المسافرين طول عهد الاسلام الغابر كالبيروني احد أولئك العلماء النادرين الذين اختصوا بين العرب بالامور الهندية فقد كتب عن تاريخ الهند ومفكريها الشيء الهام باحثا عن علومهم وفلسفتهم وافكارهم وآرائهم في الوجود والكون موازنا بينهم وبين سواهم النصارى والاميين ولا سيما الاغريق ثم كتابه عن مختلف الشعوب والاديان الذي لم يسبقه اليه احد من العرب ويزيد هذه الكتب قيمة ما تمتاز به عن امثالها من جليل الفوائد الجمة . لكنها تحتاج الى جهد عظيم في تفهمها لصعوبتها ونجد بعد ذلك ابن جبير صاحب الرحلة الشهيرة فابن بطوطة اكبر رحالة في تاريخ الاسلام على الاطلاق اذا ما نظرنا الى المسافات الشاسعة والبلدان الكثيرة النائية التي اخترقهما وجاب اطرافها ونجودها واغوارها من مراكش الى تخوم الصين ومن الاندلس الى

جوف افريقية في السودان . كلها قطعها غير عابئ بالاتعاب مستهترا بالاخطار التي استهدف لها عديد المرار وقضى شطرا عزيزا من حياته متنقلا كالفراشة من بلدة الى اخرى ورحلته ذات طلاوة وافادة وعليها مسحة سذاجة خير اشارة الى صدق الرحالة ونزاهته ولين مريكته اذ كان يرقم كل ما كان يسمعه ويراه بسذاجة الطفل تلاعبه الالوان الوهاجة من دون نقد عميق ولا اعتراض فهو من هذا القبيل شبيه بهيرودوتس الجوابة الاغريقي الشهير وجوانفيل مؤرخ الصليبية السابعة . ويختم كراتشكوفسكي كلامه في الجغرافيات انها على الاجمال ذات فائدة عظيمة لما حوته من دقيق الاخبار ومختلف الحوادث ومتباين الابحاث في ذلك العهد اذ ليس لها قرين « وهي تكسب شرفا وذكاء وجدا وشجاعة اولئك الرجال الذين تعاملوا بها وهي مأخذ اسانيد ذات قيمة لا تقدر لو تشرب استعمالها قليلا من سلسبيل روح نقاد » .

يتحول البحث الطريف المفيد بعدئذ نحو الحساب والجبر مما كان للعرب والاسلام الباع الطويل فيه . فيحدثنا عن اصل الارقام التي نسميها نحن « بالهندية » بينما تدعى في اوربة « بالعربية » وكيف دخلت عند العرب مما يعارض المألوف وهذا ما فسره احد المستشرقين ويبكه Woepeke ثم ينتهي الى تفصيل اعمال الخوارزمي فعمر الخيام فالكرخي وامثالهم ويكثر من البحث وايراد الادلة والشواهد مما نضرب صفحا عن ذكره ويتلو ذلك بفصل في المساحيات (الهندسة) واصلها عند الاغريق . ثم مقابلة ما اخذه العرب منهم وعرض بعض مسائل وامثلة وتفسيرها وعلم جرا ... ثم تصرف فالآليات (١) (علم الحيل) فعلم الفلك

(١) لقد دعونا الميكانيك la Mécanique « بالعربية « الآليات » كما سمينا الهندسة Géométrie « بالمساحيات » اذ نرى فيما احسن مفهم واليق بحث بدلا من قولنا « علم الحيل او رفع الاثقال » و « علم مسح الارض اي الهندسة » فاذا سمينا Histoire Naturelle (تاريخ الطبيعيات او علم الطبيعيات) بحسب الطلب ، لما ذا لا نطلق هذا الوزن على سائر هذه العلوم او جلها اذا كان بامكاننا (كما نجد) اخضاعها لارادتنا فنقول (المعدنيات) و (الارضيات) و (الصحيات) عن Minéralogie و Zéologie و Hygiène بالتالي وقس على ذلك . اما ما وضع له السلف لسماد قائمة بنفسها وجرى عليها الاصطلاح والتفاهم كالطب عن Médecine والجغرافية عن Géographie فالافضل والاوفق ان تبقى كما

والطب وما اليها من تضارب العلوم. وفي كل هذه يرجع الى اصلها اليوناني باحثا مبينا الفروق والمتشابهات مع اعمال الكبار من رجال العرب والاسلام وما اختصوا به من هذه المباحث العمرانية وتدخل الخلفاء فيها وحضهم اربابها عليها واكرامهم لهم.

ثم تراه يبحث في علم المواليد عند العرب فيحدثنا عن مركز الحيوانات في عرف العرب اعني الخيل والبزدرة اي الصيد بالصقور والبزاة والفهود ويتكلم عن مؤلفات ابن العوام في الزراعة والدميري في حياة الحيوان ثم يتدرج بعد ذلك الى الهلكيات (الجيولوجية) فابحاثه في استكشاف مناجم المعادن ومواضيعهم في علم المعدنيات والامكنة التي كانوا يستخرجون منها ذهبهم وفضتهم ونحاسهم ويستنبطون سائر حاجياتهم المعدنية . ثم يتوصل الى معرفة كيفية استكشاف إبرة الابحار (البوصلة) وكما يحدثنا انه يعزى الى الصينيين انهم اول من استنبطها . واستعملوها حوالي القرن الثاني المسيح . وتوصل العرب اليها واخذها عنهم الغرب ابان الحرب الصليبية ومن ثم عم شيوعها انحاء البسيطة ثم يحدثنا عن الكيميا وانتشارها بين العرب وكيف ان مقصدهم كان الشور على حجر الفلاسفة ويتوسع في هذه المادة آونة ذاكرا من بحث واختص فيها من العرب والشعوب الاسلامية . وهكذا يختم هذا الجزء الثاني بعد ان يعطي قارئه رأيا مجملا عن جميع ما اختص به العرب وابتدعت فيه وتعاملت به الشعوب التي دانت بالاسلام منذ فجر الخلافة في شعبة هذه العلوم الفياضة . وهو في هذه الموضوعات مرجع له القيمة التالية .

(لها بقية)

بركات (السودان) ميشيل سليم كعيد

وضعت صلة التفاهم . وليس من الانصاف في عصر السرعة والعمل ان نستعمل لعلم من العلوم ثلاث او اربع كلمات لتأدية معناه او مقصده . واما ان ناخذ اسمه عن الافرنجية كما هو بعد صبه في قالب عربي واما ان نشتق له من العربية معنى ، قد يكون الى الافهام اقرب والى العصرية اوفق من جميع ما نستعمله عادة واصح مطلبا . ولعلنا ان فعلناها نابحون باذنه تعالى!

(لغة العرب) لا نوافق الكاتب على تغيير كلمة الهندسة بالمساحيات فهذه تعرف بالافرنسية Arpentage والجغرافية هي التفريع ولم يسم احد علم المواليد بتاريخ الطبيعيات فهو من سيء مصطلح للعربين الحديثين . واما الطبيعيات فهي Physique وقالوا ما وراء الطبيعيات لما سماه الافرنج Métaphysique والهلكيات هي الجيولوجيه واما الصحيات والمدنيات واشباهها فمن المستحسنات .